مجلة
اللغة العربية وآدابها
المجلد7/ العدد1 / جويلية 2019. ص 197- 222

التوجيه اللغوي في إنتاج المفسرين الجزائريين.

د/ بلحاج جلول *

تاريخ الإرسال: 2019/03/28	تاريخ القبول:. 2019/07/06	تاريخ النشر:2019/07/15

الملخص:

الغرض من بحث هذا الموضوع هو التمثيل عبر عصور مختلفة للتوجيه والتناول اللغوي في إنتاج المفسرين الجزائريين، ومجرد عرض نماذج متنوعة من ذلك يتبين به ما انبنى عليه ذلك التوجيه من بحث دلالات المفردات الصرفية والتراكيب النحوية، وبيان الأساليب البلاغية، مع التركيز على التعليل فيما يعرضه أو يختاره مفسر ما، من بين جملة ما يستشهد به من أقوال السابقين من مفسرين ولغويين وبدرجات اختلاف متباينة، مع احتفاظ بعض المفسرين بحقه في التعقيب بالتصويب أو التخطئة لتعريفات وأقوال لا يراها تتفق والمنطق اللغوي، وهو ما يؤكد لاحقا الشخصية العلمية لهذا المفسر أو ذاك، ومدى اعتداده بكفاءته المعرفية. ويلاحظ الباحث الملامسة المختصرة في عمل المفسرين الجزائريين لمباحث الإعجاز القرآني اكتفاء بما هو مقررٌ في عامة كتب التفسير الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: التفسير، اللغة، التوجيه، الجزائر، البلاغة.

Abstract:

The purpose of this research is to represent through different periods of orientation and language handling in the production of Algerian interpreters, and simply to present a variety of models that show the basis of this guidance from the study of the meanings of grammatical terms and grammatical structures, and the presentation of rhetorical methods, And some of the interpretations of the exegetes of interpreters and linguists, while some of the interpreters retain the right to comment on the correction or the mistake of

---

* جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان.

البريد الإلكتروني: **Djelloulogbi46@hotmail.com**

definitions and statements that he does not agree agree with the linguistic logic, which confirms the scientific personality of this interpreter or the other, and the extent of his cognitive competence, And The researcher observes the brief connection in the work of the Algerian interpreters to the miracles of Quranic sufficiency, as it is stated in the general books of Islamic interpretation.

Keywords: *interpretation, language, guidance, Algeria, rhetoric*

*** *** ***

التمهيد

للعربية بمختلف مباحثها حضور واسع في عمل المفسرين على اختلاف عصورهم، وفي مختلف اتجاهاتهم، ومهما قلَّتْ مقادير التفسير فلا تكاد تغيب مباحث المفردات، والاشتقاق والإعراب، والبلاغة... وأعمال الجزائريين في التفسير لم تشذَّ عن هذه القاعدة. فقد تطرق جملة المفسرين إلى تحديد معاني المفردة القرآنية اتحد معناها أو اختلف. بل قد وضع الإمام الثعالبي ملحقا بتفسيره حول غريب القرآن... وتناول المفسرون إعراب القرآن فردوا على الزمخشري في الكشاف وأبي حيان في تفاسيره، كما فعل الإمام يحي الشاوي خصوصا(1096هـ/1685م)، والشيخ اطفيش الإباضي (1332هـ/ 1914م)...كما قاربوا أيضا بلاغة القرآن، فتعقبوا الكشاف وهو عمدة الباب، زيادة على تعقبهم إياه في منحاه الاعتزالي. ولكنهم لم يلامسوا مباحث الإعجاز إلا من خلال المعالجة النظرية ذات النتائج الجاهزة من أن القرآن معجزٌ بلفظه ومعناه، وقد تحدى به الرسولُ صلى الله عليه وسلم العربَ وغيرَهم، وأن إعجازه متنوع إلى علمي وتاريخي...

وتتلخص إشكالية الموضوع في التساؤل عن طريقة المفسرين الجزائريين في عرض والترجيح بين كم هائل من الموروث التفسيري سواء في مجالات الصرف أو النحو أو النظم، وكيف كان تعاطيهم مع مقولة الإعجاز التي شغلت السابقين والاحقين وأفردت لها المؤلفات قديما وحديثا؟

والذي يهم الباحث هنا هو التمثيل لجملة من المفسرين والذين تغطي أعمالهم فتراتٍ زمنيةً واسعة، وقد التزموا جميعا عند تفسير كلّ آية أن يجتهدوا في التحديد الدقيق لمدلول المفردة القرآنية سواء عن طريق التعرض لمختلف اشتقاق مادتها اللغوية، أو الاكتفاء بتحديد المعنى اللغوي بتقليد غيرهم من اللغويين أو المفسرين، وربما تعقبوا بعض هذه التحديدات بالتخطئة أو التقييد على ما سيأتي.

أولا- تحديد مدلول مفردات القرآن: ففي تفسير قوله تعالى (الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ)[الفاتحة:01] من سورة الفاتحة تعرض عبد الرحمان الثعالبي[1] إلى مدلول كلمة (العالمين) فقال: " والعَالَمُونَ: جمع عَالَمٍ، وهو كلّ موجود سوى اللَّه تعالى، يقال لجملته: عَالَمٌ، ولأجزائه من الإنس والجنّ وغير ذلك عَالَمٌ، عَالَمٌ، وبحسب ذلك يجمع على العَالَمِينَ، ومن حيثُ عالَمُ الزمانِ متبدِّلٌ في زمان آخر، حَسُنَ جمعها. ولفظة العالَمِ جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، وهو مأخوذ من العَلَمِ والعلامة؛ لأنه يدلّ على موجده؛ كذا قال الزَّجَّاج. قال أبو حَيَّان: الألف واللام في (العَالَمِينَ) لِلاستغراقِ، وهو جمعُ سلامة، مفرده عَالَمٌ، اسم جمع، وقياسه ألا يجمع، وشذَّ جمعُه أيضاً جمع سلامة؛ لأنه ليس بعَلَمٍ ولا صفةٍ. (م): وذهب ابنُ مالك في «شَرْحِ التَّسْهِيلِ» إلى أن (عَالَمِين) اسم جمعٍ لمن يعقلُ، وليس جمع عالمٍ؛ لأن العَالَمَ عامٌّ، و«عالَمِينَ» خاصٌّ، قلتُ: وفيه نظر.انتهى."[2]. فأنت تراه بعد أن استعرض أهمَّ ما قيل في مدلول هذه المفردة الشريفة مصحوبا بتصريفها، وسمى بعض من اختار ذلك عقَّب على ما نقله عن ابن مالك، وهو يدل على شخصية الثعالبي العلمية، في تبني ما قام الدليل على صحته، وإنما منعه من التفصيل في النظر المذكور أن المحلَّ محلُّ اختصار كما هي عادته في كتابه، وقد صرح بمقصوده في الاختصار مرارا، كما في قوله: " فإنّي جمعتُ لنفسي ولك في هذا المختصر."[3].

وفي موضع آخر يستفيد الثعالبي من إجماع المفسرين حقيقةً علمية تعينُ المفسر، وتسمح بتوسيع المدلول اللغوي للمفردة القرآنية، حيث أن إجماع المفسرين على

تحديد مدلول ما للفظة القرآنية لا يمنع تعددَ معانيها، وهو أمر مهمٌّ وباب في استثمار المعاني القرآنية على ما تقتضيه الشروط العلمية، فقد قال حول كون السلوى بمعنى العسل: " (ص): قال ابن عطيَّة: وغلط الهُذَلِيُّ في إِطلاقه السلوى على العَسَلِ؛ حيث قال [الطويل]:

وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ عَهْداً لأَنْتُمُ... أَلَذُّ مِنَ السلوى إِذَا مَا نَشُورُهَا.

(ت): قد نقل صاحبُ المختصر؛ أنه يطلق على العَسَلِ لغةً؛ فلا وجه لتغليطه؛ لأنَّ إِجماع المفسِّرين لا يمنع من إِطلاقِهِ لغةً بمعنى آخر في غير الآية. انتهى.."[4]. فانظر كيف تحفظ في تغليط ابن عطية للهذلي المذكور، وأن الإجماع على إطلاق المفردة على معنى محدد لا يمنع من وضعها لمعنى غيره كما في المثال السابق.

وتعرض الشُّمُنِّي القسنطيني (873هـ/1467م) إلى المفردتين معا من قوله تعالى (رب العالمين)[الفاتحة: 01]، فعدّد من المعاني في ذلك على ما هو المعروف في كتب اللغة، ومتداول في كتب التفسير من أنه المِلِك والمالِك والسيد والمربي، وكذلك تتسع له مفردة (ربٍّ)، دون أن يقتصر على معنى دون آخر، فقال: الربُّ لغة يطلق بإزاء معان خمسة أحدها المعبود، ومنه قول الشاعر:

أربٌّ يبولُ الثُّعْلُبانُ برأسه *** لقد ضلَّ من بالتْ عليه الثعلبان.

وثانيها: الملك، ومنه قول صفوان بن أمية يوم حنين لأخيه: لأن يربني رجلٌ من قريش خير من أن يربيَني رجل من هوازن. وثالثها القائم بالأمور المصلح لما يفسد منها... ورابعها: السيد المالك كقولهم ربُّ الدار والعبيد. وخامسها: المربي... ولا شك أن الله عز وجل يطلق عليه ربٌّ بجميع هذه المعاني كلها لكونه معبودا ومالكا للعالم ومربيا له وقائما بالأمور ومصلحا لما يفسد فيها. وربٌّ مصدر ربَّ يرُبُّ فهو ربٌّ كما يقول نمَّ عليه ينُمُّ فهو نمٌّ مثل برٌّ."[5]. والشاهد في هذا النص والذي يليه تناول المفسر للمعاني الواردة مدلولاتٍ للفظة الشريفة.

والمفردة الثانية تراه يقرر بحسم أنه جمع مفرده عالم، فقد قال " وأما (العالمين) فلا جرم أن العالمين جمع عالم وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، والكلام فيه يتعلق بأبحاث ستة. أحدها في حقيقته لغة، وثانيها في حقيقته اصطلاحا، وثالثها في أقسامه، ورابعها في بيان الشيء الذي اشتقَّ منه، وخامسها في فائدة جمعه، وسادسها: في بيان علة جمعه بالواو والنون مع أنه اسم غير صفة."[6]. وأدرج تحت هذا مباحث متعلقة تركت التعرض اكتفاء بالإشارة إلى طريقته في ذلك، وهو قدر كاف للبيان.

وأما محمد بن يوسف السنوسي[7] (895هـ/1490م) فقد اختصر ما فصله شيخه الثعالبي، واكتفى بالتأكيد على أنه جمع عالم، وجُمع لاختلاف أنواعه فقد قال: " والعالَمون: جمعُ سلامة على غير قياس، مفرده عالَم، وهو كل موجود سوى الله تعالى. جمع إشارة إلى اختلاف أنواعه وأشكاله."[8]. وهو قدر كاف للتوضيح، وكذلك فعل تلميذه المغيلي فقد اختار ما استقر عليه جملة المفسرين بعد طول بحث واستعراض إذ " (العالَمون) عنده " جمعُ عالم وهو كل موجود سوى الله مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على أسماء خالقه، فيقال لجملة الكون عالم فلا يثنى ويجمع بحسب ذلك."[9].

فإذا تقدم الباحث على فترة تزيد على القرنين من الزمان طالعه كلام الشيخ أبي راس الناصري في تفسير نفس اللفظتين الشريفتين وقد التزم الاختصار في عمله بنفس ما هو مقرر، ومعروف عند المفسرين السابقين على اختلاف في العبارة فقد ذكر ما نصه: " (ربِّ العالمين) أي مالِك جميع الخلق من الإنس والجن والملائكة والدوابِّ وغيرهم. كلٌّ منها يطلقُ على عالَم، يقال عالَم الإنس وعالم الجن، ونحو ذلك. وغلبَ في جمعه بالياء والنون أولي العلم على غيرهم. وهو من العلامة اسمٌ لما يُعلَّم به كالخاتم، فهو علامة على موجده سبحانه وتعالى، وقيل اسمٌ وضع لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وتناولُه لغيرهم على سبيل الاستتباع."[10].

هذا عند من اصطلح على تسميتهم بالمتأخرين من المفسرين، وأما عند المعاصرين منهم فلم يكن من طريقتهم تشقيق المباحث، ولا الاستكثار من الأقوال ومن ثم الاشتغال بالتعقيب عليها، بل جهد الواحد منهم أن يختار ما يراه أقرب إلى الظاهر، وما يفيد القارئَ المعنى المراد من أقرب طريق. فعند الشيخ أبي بكر الجزائري وفي نفس المفردة الشريفة، يقرر بأن (عالمين)" جمع عالَم وهو كل ما سوى الله تعالى، كعالم الملائكة وعالم الجن وعالم الإنس وعالم الحيوان، وعالم النبات."[11]. مكتفيا بذلك فيها وفيما شابهها من المفردات. وهو عمل يحتمله قارئ التفسير الحديث.

هذا حيث تكون المفردة القرآنية ذات معنى إما متحدُ المدلول أو تتنازعه معان أخرى، تتفق أو تختلف. وأما حينما يتعلق الأمر بالحروف المقطعة التي وردت في بداية كثير من السور، والتي طال الاختلاف حول معناها فأنت تراه يجنح إلى التزام تفويض معانيها إلى الله سبحانه وتعالى، ويرى ذلك أسلم لقارئ القرآن مهما كانت درجته في العلم فقد قال عند قوله تعالى (آلم) " أحسنُ أوجه التفسير لمثل هذه الحروف القول بأن الله اعلم بمراده به، مع الإشارة إلى أنه أفاد فائدتين: الأولى أن هذا القرآن المؤلف من مثل هذه الحروف المقطعة قد عجز العرب على تأليف مثله فدل ذلك على أنه وحي الله وتنزيله، وأن من نزل عليه نبيُّ الله ورسوله وأن ما يحمل من تشريع هو حاجة البشرية ولا تصلح ولا تكمل ولا تسعد إلا به وعليه، والثانية أنه لما كان المشركون يمنعون من سماع القرآن مخافة تأثيره على المستمع له جاء تعالى بمثل هذه الفواتح للعديد من سور كتابه فكانت تضطرهم إلى الاستماع إليه لأن هذه الحروف لم تكن معهودة في مخاطباتهم."[12]. وسيجري على هذا الاختيار كثير من المفسرين المعاصرين نشير إليهم في محالهم من هذا المقال.

2- التصريف والتوجيه النحوي: ألف كثير من العلماء في إعراب القرآن، ومن هؤلاء أبو العباس المقري (1041هـ/1631م)، واختصر الشيخ التنلاني (1150هـ/1640م) المصون لابن السمين، على أن كثيرا من المفسرين خصوصا المتقدمين منهم، والشيخ اطفيش من المتأخرين، ومن المعاصرين الشيخ التواتي ضمنوا تفاسيرهم مباحث

مطولة في التصريف والإعراب. ويختلف الطول في ذلك بين مفسر وآخر. ويدل ذلك على مدى أهمية الجانب اللغوي في التفسير، وضرورة إلمام المفسر بقواعده.

والغرض هنا أن أمثل لذلك من مختلف التفاسير التي عثرت عليها، وأبين من خلال ذلك التمثيل أن المفسرين الجزائريين أسوة بغيرهم من المفسرين، وعلى قدم البحث والتحقيق قد أسهموا في خدمة القرآن ومن ثم اللغة العربية إذ ضمنوا تفاسيرهم مقادير غير قليلة من ذلك. بل إن يحي الشاوي أقام من تفسيره محكمة وميزانا حاكم فيه ما انتهى إليه البحث اللغوي في كتب لها شأن كبير في ميدان التفسير واللغة العربية عموما وهي كتاب الكشاف للزمخشري (538هـ/1143م)، وكتب تفاسير أبي حيان (745هـ/1345م)، وتفسير المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي(542هـ/1147م). وهي كتب حجة في الأبواب التي تخصصت فيها، وأصحابها فرسان الحلبة كما يقولون.

وأبدا بالمفسر محمد البسيلي[13] عند قوله تعالى (الرحمان الرحيم)[الفاتحة: 01] بعد أن استعرض كلام من سماهم في النص الذي ننقله بعدُ، وتركَ التعقيبَ على ما فيه فكان ذلك دليلا على تبنيه لما انتهى إليه البحث فيها من تقريرات علمية. فقد قال ما نصه: " وحكى ابن الحاجب المالكي (646هـ/1348م) في الأصلي، لما عرّف الحقيقةَ والمجاز أن ﴿الرحمان﴾ خاصّ، والمشترك إنما هو رحمانُ اليمامةِ بالإضافة. وذكر الأصوليون (الرحمان) مثالا للمجاز الذي ليست له حقيقة. قال ابن الحاجب: ولو قيل: لو استلزم المجازُ الحقيقةَ لكان بنحو الرحمان حقيقة، ولنحوها [كذا بالأصل] كان قويا. ابن هشام المصري: الحقُّ قول الأعْلَمِ وابن مالك (الرحمان) ليست بصفة بل علَم. وأما قول الزمخشري: إذا قلتَ: اللهُ رحمانٌ، هل تصرف أمْ لا؟ وقول ابن الحاجب: اختلف في صرفه، فخارجٌ عن كلام العرب من وجهين: أنه لم يستعملْ صفةً، ولا مجردا من " ألْ". ويبين علَميتَه أنه في البسملة ونحوها بدلٌ لا نعتٌ، وأن (الرحيم) بعده نعتٌ له لا نعتٌ لاسم الله سبحانه؛ إذ لا يتقدم البدلُ على النعت. وأن السؤال الذي سأله الزمخشري وغيره: لمَ قُدم الرحمان مع أن عادتهم تقديم

الأبلغ كقولهم: عالِم نِحْرِيرٌ، وجواد فيّاض غير متّجه. ومما يوضح لك أنه غير صفة مجيئه كثيرا غير تابع نحو (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ)[الرحمن:1])، (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ)[الإسراء:110])، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ)[الفرقان:60]. قال: وقول الشاطبي: تبارك رحمانا رحيما ومَوْئلا، نصبَ رحمانا بإضمار أَخُصُّ أو أمدحُ، ورحيما حالٌ منه لا نعتٌ له، ولا تمييزٌ لما ذكرنا، وجعلَهما بعضُهم تميزَيْن وهو خطأ؛ لأن التمييزَ لا يتعددُ بخلاف الحال فإنها تتعددُ. وقيل إن رحمانا حالٌ، وحذف " ألْ " من رحمانا للضرورة. الفخرُ: وقيل إن عمر بن عبد العزيز خرج إلى المصلى يوم العيد فلما صلى قال: اللهم ارحمني، فإنك قلتَ: (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[الأعراف: 56]، فإن لم أكن منهم فأنا من الصائمين، وقلتَ (وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) [الأحزاب:35]، فإن لم أكن منهم فأنا من المؤمنين (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)[الأحزاب: 43]، فإن لم استوجبْ ذلك فأنا شيءٌ، وقلتَ (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)[الأعراف:156]، فإن لم أكن كذلك فأنا مصابٌ حيث حُرِمتُ رحمتَك، وقلتَ (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ)[البقرة: 156، 157])."[14].

والنص على طوله يكشف عن قدرة المؤلف ومنهجه في تناول القضية العلمية إذ أشرك فيها أهل اللغة والتفسير والأصول، وتعقب فيها مختلف الأقوال بعدم الاتجاه، أي نقص السلامة العلمية في ما انتهى إلى تقريره بعض من أورد كلامهم في النص السابق. وهو يدل أيضا أن الأصوليين قد خلَفوا أهل اللغة في القيام بالتحقيق اللغوي خصوصا ما بعد زمن ابن الحاجب وقد كان في القرن السابع، حتى أضحت اختياراته الأصولية يحتج بها في قضايا اللغة، والقراءات...

واهتم البسيلي رحمه الله أيضا بالتصريف كلما دعت إلى ذلك الحاجة كما فعل عند قوله تعالى (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

ISSN: 2352-9830 EISSN: 2600-6898

الْمُؤْمِنِينَ)[آل عمران:171]، فقد قال: " (يسْتَبْشِرون): جعلوه مطاوع "بشَّرّ"، والمطاوع في الغالب إنما هو في الماضي مثل " كسَرْتُه فانكسَر"، و" جَبَرْته فانجَبَر."[15].

وبمناسبة التعليق على قوله تعالى (بنعْمَةٍ من اللَّه وفضْل) حاول أن يوجد فرقا بين (نعمة) و(فضل) إذ كانا معطوفين على بعض وذلك باجتهاده في أن " الأمر الملائم إن اعْتبرَ من حيث ذاته فهو نعمة، ومن حيث سببه فهو فضل؛ لأن سببه من الله، ولذا قيد النعمة بقوله: (منَ اللَّه)، ولم يقيد الفضل. والآية صريحة في مذهب أهل السنة في قولهم: إن الثواب محضُ تفضل.."[16]. والعبارة الأخيرة ليست مما نحن فيه، وإن كان لها تعلق وظيفي بالتفسير، في كونها حجة على معتقد معين ليس هنا محلّ الحديث عنه.

وبحث الشمني بعض الألفاظ الواقعة في تفسير الفاتحة، وهو ما عثرت عليه في عمل منسوب له، فعند تفسيره للفظ الاستعاذة عرض لمفردة (الشيطان)، وبين بعد البحث مصدر اشتقاقه فقال: " وأما اشتقاقه فلا شك أنه مشتق على رأيٍ من شَطن يشطنُ إذا بَعُد يقال: بئرٌ شَطُونٌ أي بعيدة القَعْر سمي بذلك لبعده عن رحمة الله. وعلى رأي آخر من شاطَ يَشيطُ إذا هلك وسمي بذلك لهلاكه بمعصيته. ورُدَّ أولا بأن العرب تقول تشَيْطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين فلو كان من شاط لقالوا: يشيط، وثانيا: ببيت أمية بن أبي الصّلْت:

أيما شاطن عصاه عكاه *** ثم يلقى في الشجن وإلا بكاك.

فلو كان مشتقا من شاط لقال: أيما شاط. ووزنه فيْعَال وينصرف على الرأي الأول وفَعْلان، ولا ينصرف على الرأي الثاني."[17]. ولم ينسب قولا مما أورده إلى شخص معين مما يدل على كثرة القائلين به لكنه ذكر مستند القول الشائع واستدل له بشاهد العربية، وردّه بما وردَ في النص.

وكذلك فعل الشيخ أبو راس الناصري[18]، إذ التزم على طول ما ورد إلينا من تفسيره أن يذكر محلّ الحرف أو الكلمة أو الجملة من الإعراب وكلّ ذلك باقتضاب

شديد وترك التعرض للخلاف في ذلك إلا قليلا كما فعل عند قوله تعالى " (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) الواو عاطفة و(لَا) زائدة لتوكيد النفي بدلٌ من الذين، على معنى أن المنعَم عليهم هم الذين سَلِمُوا من الغضب والضلالة. ونُكْتَةُ البدل أفادتنا أن المهتدين ليسوا بيهودَ ولا نصارى، أو صفةٌ مبينةٌ. و(غَيْرِ) بالجرِّ إما بدل من الذين على المعنى أو من ضمير (عَلَيْهِمْ)، وقُرِئَ شاذا بالنصب: إما حال من ضمير (عَلَيْهِمْ) ناصبُها (أَنْعَمْتَ) أو من (الذين) وعاملُها معنى الإضافة."[19]. وهكذا يتم الجمع بين الإعراب والتصريف والقراءة وتحديد المعنى اللغوي...فيكون بذلك قد ألم بمختلف أغراض التفسير التقليدية.

وقبل أن أمثل للمعاصرين أنبه أن الشيخ اطفيش ممن امتازت تفاسيره بالتعرض للإعراب والتصريف والاشتقاق بشكل موسع وردّ بإسهاب خصوصا في تفسير هميان الزاد على من خالف مختارَه من الوجوه المتعددة في إعراب الآية... والمطالع لتفاسيره يجد ذلك واضحا يتجاوز حد الحصر.

وأشير هنا إلى شخصية معاصرة وهو الدكتور التواتي حفظه الله إذ كان ممن اهتم بالتطرق إلى مختلف الأغراض النمطية لمفسر القرآن. وعلى سبيل المثال في باب الاشتقاق نص أن " لفظ الجلالة (الله)، اسم مرتجل جامد، والألف واللام فيه لازمة لا للتعريف. قال الواحدي: اسم تفرد به الباري سبحانه وتعالى يجري مجرى الأسماء والأعلام، ولا يعرف له اشتقاق. قال الأقليشي: إن هذا الاسم مهما لم يكن مشتقا كان دليلا على عين الذات، دون أن ينظر فيها إلى صفة من الصفات،وليس باسم مشتق من صفة، كالعالم والحق والخالق والرازق. والألف واللام على هذا في (الله) من نفس الكلمة، كالزاي من زيد. وذهب إلى هذا جماعة واختاره الغزالي. وقال كل ما قيل في اشتقاقه فهو تعسف.

- وقيل مشتق من التأله وهو التعبد.

- وقيل من الولهان: وهو الحيرة؛ لتحير العقول في شأنه.

- وقيل: أصله الإله، ثم حذفت الهمزة، ونقلت حركتها إلى اللام، ثم وقع الإدغام وفخمت للتعظيم إلا إذا كان قبلها كسر."[20].

وبخصوص المعالجة النحوية يلتزم المفسر بإزاء كل آية التعرض إلى إعرابها، ويوجه ما قيل في ذلك مع التزام أن يكون القول منسوبا إلى صاحبه، ويختار مستدلا لاختياره، كما فعل عند قوله تعالى (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)[النساء: 1]، فقد قال:: " و(يا) في قوله (يا أيها) حرف نداء، وزعم بعضهم أنها اسم فعل معناها: أنادي، وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداءٌ إلا بها. وهي أعم حروف النداء، إذ ينادى بها القريب والبعيد، والمستغاث والمندوب. وأمالها بعضهم، وقد تتجرد للتنبيه فيليها المبتدأ والأمر والتمني والتعليل، والأصح أن لا ينوى بها منادى. (أي) منادى مبني على الضم، وليست الضمة فيه حركة إعراب خلافا للكَسائي والريَّاشي. وهي وصلة لنداء ما فيه الألف واللام ما لم يمكن أن ينادى توصل بنداء أي إلى ندائه. وقال ابن سيدَه: تأتي أي استفهام وشرط وصفة ووصلة لنداء ما فيه الألف واللام وموصولة خلافا لأحمد بن يحي، إذ أنكر مجيئها موصولة. ولا تكون موصوفة خلافا للأخفش. (ها) للتنبيه أكثر استعمالها مع ضمير رفع منفصل مبتدأ مخبر عنه باسم إشارة غالبا، أو مع اسم إشارة لا لبعد. ويفصل بها بين أي في النداء وبين المرفوع بعده. وضمها فيه لغة بني مالك من بني أسد يقولون: أيه الرجل، ويا أيتها المرأة..."[21].

وأيضا عند قوله تعالى " (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[البقرة:21]. فقد فصل في مدلول (لعلّ) من قوله تعالى (لعلكم تتقون)، واستعرض ما تحتمله من المعاني على جهة الإفراد والتركيب، مستدلا على ما يقول بنظائرها في القرآن، وبأقوال العلماء كالشريف الرضي...فقد قال " (لعل): في المشهور موضوعة للترجي وهو الطمع في حصول أمر محبوب ممكن الوقوع والاشتفاق، وهو توقع مخوف ممكن.، والظاهر التقابل فتكون مشتركة. وذكر الرضي رحمه الله وهو ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله فيدخل فيه الطمع والإشفاق. والذي

يميل إليه القلب ما ذكره بعض المحققين أنها لإنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول:

- إما محبوب فيسمى رجاء أو مكروه فيسمى إشفاقا، وذلك قد يعتبر تحققه بالفعل إما من جهة المتكلم وهو الشائع؛ لأن معاني الإنشاءات قائمة به.

- وإما من جهة المخاطب تنزيلا له منزلة المتكلم في التلبس التام بالكلام الجاري بينهما. ومنه (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[البقرة: 221]، وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز إيذانا بأن ذلك الأمر في نفسه مَئِنَّة للتوقع متصف بحيثية مصححة له من غير أن يعتبر هناك توقع بالفعل من متوقع أصلا."[22].

3- الاقتصاد في تناول الجانب البلاغي:

كان من ضمن خصوصيات القرآن الكريم بلاغته في الخطاب، وتنوع أساليب آياته تبعا لتنوع موضوعاته، وقد عرف العرب ذلك من المقدمات الأولى للخطاب القرآني، وضمن السور المكية منها مهما قصرت، ومن الطوال والمفصل في العهد المدني، ولم يختلف أسلوب القرآن وهو يتحول عن مكة بلد المكذبين إلى المدينة حيث الكثرة من المؤمنين، أو المسلمين. ولأجل ذلك درج المفسرون بما فيهم الجزائريون على تناول ما يظهر من البلاغة، وما تثيره في النفوس من القبول.

ونحاول أن نوجز الكلام فنبدأ بالسنوسي، فقد نقل عن الرصاع وهو من المفسرين الجزائريين[23] نصا في تفسير قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون)[البقرة: 01]، وعقب عليه بما رآه أسدَّ في القول، وأرعى لجانب بلاغة النظم، وذلك عند قوله : " ثم قال رضي الله تعالى عنه بعد كلام له في إعراب هذه الآية التي تقدم تفسيرها الآن ما نصه: قال الشيخ الرصاع: إن قيل ما سرُّ تقديم قوله ﴿ ومما رزقناهم﴾ على عامله، مع أن مقتضى الظاهر الثناء على هؤلاء السادة بحصول الإنفاق في أموالهم كما وقع الثناء عليهم من جهة أنهم أنفقوا مما رزقوا لا من غيره؟ فالجواب: أما إن قلنا أن الرزق يطلق على الحلال فقط، وهو مذهب المعتزلة فيفهم التقديمُ إفادةَ

المحافظة على الإنفاق من الحلال المحمود عاقبته، وإن قلنا بمذهب أهل السنة، وهو الحق فلا يظهر إلا مراعاة الفاصلة، وإن كان هذا غير مرتضى فالجواب عند المحققين. قلت: ما أجاب به من أن تقديم المعمول لرعْيِ الفواصل أجاب به أبو حيان، ولا خفاء في ضعفه؛ لأن رعي الفواصل إنما هو من المستحسنات اللفظية ولا اعتبار لها إلا بعد المحافظة على البلاغة التي هي تطبيق اللفظ لما يقتضيه الحال، والحقُّ أن التقديم إنما هو لإفادة الحصر، وأن المراد بالرزق هنا الحلال فقط. أما عند المعتزلة فظاهر؛ لأن الحرام عندهم ليس برزق فإسناده عندهم إلى الله تعالى للإشعار بأنه لا يكون إلا حلالا، إذ القبائح لا تسند إلى الله تعالى بمقتضى العقل عندهم وأما عندنا فمن جهة أن الآية انصبت لمدح أوصاف المتقين، وبيان ما يكون به التقوى وذلك في الإنفاق لا يصح إلا إذا كان من الحلال لاسيما عند التصريح بالاستناد إلى الله تعالى، فإنه قد جرى الأدب باستناد الأفضل والأكمل إليه تعالى. ففائدة إسناد الرزق إليه جل وعلا هنا مدحهم بأنهم خصوا إنفاقهم بالشيء الشريف العزيز الذي حق أن يظن به وتشد اليد عليه لشرفه وعزة وجوده وهو الحلال وذلك يستلزم مدحهم أيضا بنزاهتهم عن الظلم والحرص على أخذ ما ليس لهم كما مدحوا بتنزههم عن الشح بما هو لهم فإن من لا ينفق مطلقا إلا من الحلال من لازمه الزهد والورع ففي الآية على هذا النوع المسمى في فن البديع بالاستتباع وهو المزج بشيء على وجه يستتبع المدح بشيء آخر كقول أبي الطيب:

نهبت من الأعمار ما لو حويته *** لهنئت الدنيا بأنك خالد.

فإنه مدحه ببلوغ النهاية في الشجاعة على وجه استتبع مدحه بالعدل أو أنه سبب لصلاح الدنيا ونظامها بدليل تهنئتها بخلوده فيها لو خلد. وفي الآية أيضا مدحهم بكمال شفقتهم على عباد الله تعالى وإمائه حيث أشفقوا عليهم باعتبار ديماهم فأنفقوا عليهم وصانوهم من الضياع وأشفقوا..."[24]. ومهما يكن ما أبداه من اعتراض، وقدمه من توجيه، فالذي يهم هنا كون المفسر الجزائري قد التزم التطرق لمواضع

البلاغة في الآيات التي هو بصدد تفسيرها، ومحاولة التعقيب على أعيان النحويين والبلاغيين تدل على عمق الحس البلاغي عن المفسر المذكور.

ومع أن الشيخ أبو راس الناصري، قد عمَدَ إلى الاختصار الشديد في تفسيره إلا أنه لم يخلّ بالإشارة إلى مواضع البلاغة من الآيات، كما فعل عند قوله تعالى:" (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) العبادة: الطاعة البالغة للنهاية في الخضوع والتعظيم والعبادة الصحيحة ما تحقق فيها أمران: الإخلاص، وموافقتها للوضع الذي رسمه الشارع. وقدم المعبود على العبادة، فقال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) لإفادة قصر العبادة عليه، وهو ما يقتضيه التوحيد الخالص. والمعنى: نخصك بالعبادة، ولا نتجه بها إلى غيرك."[25].

وإن ما ذكرته في الموضع السابق للشيخ أبي راس لا يدلّ على ما قدمته دلالة المنقول عن السنوسي، غير أن الوضع يختلف بالنسبة للشيخ اطفيش " (إِيَاكَ نَعبُدُ وإِيَاكَ نَسْتَعينُ): أي ما نعبد إلا إياك، وما نستعين إلا إياك، فالتقديم للحصر والاهتمام والتعظيم، وزاد إياك نستعين بأن التقديم فيه للمفاصلة أيضاً إذ لا تختم بالنون لو قال: " ونستعينك " لكن يلزم أيضاً أن يقال في إياك نعبد زيادة على ما مرَّ وهو المناسبة لـ(إياك نستعين) المستحق للتقديم. وما ذكرت من أن التقديم للحصر ولما ذكر هو الحقّ كما اشتهر في علم البيان، وليس كما قال السبكى: إن التقديم لا يدل على الحصر، وإنه إنما يدلّ على الاختصاص الذي تفيده لام الجر، ثم لا مانع عندي أن يراد أوجه الحصر كلها في الآية. وحيث أمكن حصر القلْب وحصر التعيين وحصر الإفراد، وكأنه قيل نعبدك وحدك ونستعينك وحدك، مخالفين لمن جهل من يعبده ومن يستعينه وتردد، ولا نعبد غيرك ولا نستعينه، كما اقتصر بعض المشركين على عبادة غيرك واستعانته." [26]. وهذا النص يدل على مقدرة كبيرة على التوسع في التدليل على وجهة النظر البلاغية التي يبديها المفسر وقد يوافق أو يخالف فيها غيره. وانظر كيف تعقب السبكي بالتخطئة في عدم دلالة التقديم على القصر.

وتجد الشيخ الخضر حسين[27] مع أنه التزم الاختصار فيما تعرض له من التفسير إلا أنه اختصار لا يخل بأصل المقصود، فهو لا يفوت فرصة أن يشير إلى اللفتة البلاغية كلما أمكن. فقد قال عند قوله تعالى " (وادعوا شهداءكم من دون الله)[البقرة:23] وتسميتها شهداءَ مع إضافتها لهم وهي لا تعقل ولا تنطق، واردان على الطريقة المعروفة بين البلغاء، المسماة في عرفهم: طريقة التهكُّم، وهي أسلوب لطيف يثير في نفوس المخاطبين من الألم ما قد يكون سببا لتنبههم لجهلهم، وانصرافهم عن ضلالهم."[28]. وهذا التعرض بإيجاز كاف للإشارة للمقصود وحصول الغرض عند المطالع العادي للتفسير.

وجمع عبد الحميد بن باديس[29] في النص التالي بين الإشارات البلاغية، وموقعها من النظم، وربطها به عند إفراد الكلام وتركيبه كما قال عند قوله تعالى:" (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) [الفرقان: 32]: هذا اعتراض آخر من اعتراضاتهم الباطلة، نسوقه مع ما تقدم منها ليُجاب عنه، ويبين خطؤهم فيه، كما فعل بما تقدمه. (لولا) مع المضارع للتحضيض، نحو: (لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ) [النمل: 46]. ومع الماضي للوم والتوبيخ، نحو (لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) [النور: 13]. وهي هنا مع الماضي فتكون للوم على عدم حصول المذكور وحصول ضده. والمقصود من اللوم هنا الاعتراض على عدم نزوله جملة واحدة، ونزوله مفرقاً. فالمعترض عليه هو نزوله مفرقاً. (نزل) يأتي مرادفاً لأنزل والتضعيف أخو الهمزة، ويأتي مفيداً للتكثير فيفيد تكرر النزول وتجديده. وخرج على هذا قوله تعالى: (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)[آل عمران: 3]. وأما هنا فلا يصح حمله على التكثير المفيد للتدريج، لئلا يناقض قولهم جملة واحدة، فيكون من التضعيف المرادف للهمزة. وعندي أن (نزّل) المضاعف يردُ لكثرة الفعل ولقوته؛ فجاء لكثرته في آية آل عمران المتقدمة، وجاء لقوته في هذه الآية؛ لأن إنزال الجملة مرّة واحدة أقوى من إنزال كل جزء من الأجزاء بمفرده."[30].

وكذلك تعرض الشيخ التواتي إلى وجوه البلاغة في الآيات، وإن كان ذلك يختلف باختلاف مواضعها من الآيات ففي الجزء الأول لم يتعرض بوضوح لذلك، وأوضح ما وجدته قوله عند تفسير آية " (إياك نعبدُ وإياكَ نستعينُ) التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب، وتلوين للنظم من باب إلى باب، جار على نهج البلاغة في افتنان الكلام، ومسلك البراعة حسبما يقتضي المقام؛ لمَّا أن انتقل من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ أدخلَ في استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب، والغيبة إلى كل واحد من الآخرين."[31]. فإضافة إلى ما كشف عنه من وجه البلاغة وهو المسمى " الالتفات"، بين فائدته للمخاطب، وما يثيره في القلوب من الإقبال على الخطاب، والتأثر بمضمونه.

وأود أن أشير هنا إلى أن مستوى البلاغة قد أخذ يختلف من حيث الدرجة، وأيضا من حيث طريقة العرض، وليس ذلك إلا لأن تذوق اللغة قد اختلف شكله فهو إلى تشخيص الصورة أقرب من الدلالة على المباحث القديمة، ومفردات البلاغة النمطية. وقد بدأت هذه الخطوة ضيقة عند الخضر حسين وابن باديس كما رأينا، ثم توسعت عند الشيخ كعباش مثلا، وسأذكر بعضا من الأمثلة الموضحة لذلك كما فعل عند قوله تعالى (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)[المؤمنون: 104]، ذكر ما نصه:" إنه مشهد مروّع، إذ تتشوه وجوههم في لفح النار، والوجه هو العاكس لسعادة الإنسان أو شقاوته والعياذ بالله، وبلوغهم صفة الكلح يدل على ما يصابون به من شدة الألم بحيث يغني منظرهم المشوّه عن معرفة حالهم.

لا تسأل المرء عن خلائقه *** في وجهه شاهدٌ من الخبر.

ومع العذاب الحسي الأليم، يواجهون بالخطاب الإلهي التأنيبي، إمعانا في النكاية والخزي﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 105،107]، لا أنكى على المجرم من التذكير بجرائمه، وإقراره بالجريمة

فيه نوع من الرجاء في التخفيف في العقاب، ولكن هيهات، فقد جفَّ القلم وطويت الصحفُ."[32]. وهذا هو ما عرف حديثا عن بعض الكاتبين كسيد قطب رحمه الله بالتصوير الفني، ويبدو الشيخ كعباش متأثرا بهذا الشكّل العرض البلاغي، فأحسن في العرْض، وأبدع في التصوير. والقارئ الحديث أكثر تقبلا لهذا النوع من العرْض البلاغي.

وفي موضع آخر عند قوله تعالى (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ)[المؤمنون: 54]: " الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وضمير الجمع الغائب عائد إلى مشركي مكة، إذ كانوا من جملة الفرحين بما لديهم من التقاليد الضالة في تعدد آلهتهم، واختلاف توجهاتهم، بحيث هم منغمسون إلى الأذقان في غمرة من الزهو والترف، تشغلهم عن التدبر والتأمل في دعوة الإسلام، التي جاءت لتنقذهم مما هم عليه، فقد شبه الله حالتهم بمن يحيط به الماء من كل مكان، وهو يدعي القدرة على السباحة، ولكنه هالك بعد حين. ويتضمن التشبيه تهديدا شديدا تفصح عنه الآيات اللاحقة ، إذ يقول تعالى (أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦) [المؤمنون: 55،56]، الجملة مكملة للتهديد السابق...والاستفهام إنكاري توبيخي..."[33].

أكتفي بهذا المقدار من العرض إذ كان الغرض مجرد التمثيل لتناول المفسرين الجزائريين لجانب البلاغة في الآيات، وكيف اختلف ذلك عندهم من التطويل إلى الإيجاز، ومن المباحث التقليدية إلى صور الذوق البلاغي المباشر عند المعاصرين خصوصا.

4- مبحث الإعجاز القرآني:

إعجاز القرآن حقيقة واقعة دلت عليها نصوص القرآن والحديث، وواقع الحال وتناولها المؤلفون قديما وحديثا. وأدرجوا وجوهها تحت عنوان المعجزة الدالة على صدق الرسول سواء كانت من جنس اللفظ أو من جهة المعنى. فعند الباقلاني مثلا

نجد هذا التقرير: " الدليل على إثبات نبوة نبينا ما ظهر على يده من الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة، والحجج النيرة، الخارقة للعادة، والخارجة عما عليه العادة، وتركيب الطبيعة. والله سبحانه وتعالى لا يظهر المعجزات ولا ينقض العادات إلا للدلالة على صدق صاحبها، وكشف قناعه، والإقرار بنبوته والخضوع لطاعته، والانقياد لأوامره ونواهيه."[34].

وفي نص ثان في نفس الموضوع عند الشهرستاني "من المعلوم أنه ليس كل أحد يعرف حكم الباري سبحانه وتعالى وأمره فلا بد إذن من واحد يستأثر بتعريف حكمه، وأمره في عباده. وذلك الواحد يجب أن يكون مخصوصا من عند الله عز وجل بآيات خلقية يجريها الله على يده عند التحدي لما يدعيه، وتدل تلك الآيات على صدقه، نازلة منزلة التصديق بالقول، ثم إذا وجب صدقه وجب اتباعه في جميع ما يقول ويفعل."[35] .

والمعجزات له عليه الصلاة والسلام كثيرة؛ بل إن إعجاز القرآن منها له وجوه متعددة: منها جانبه البياني، والعلمي...والمفسر ملزم تبعا لذلك بالإشارة إلى كل ذلك في محلّه، وعلى مقاديره...وربما استدعاه ذلك إلى التفصيل وإقامة البراهين. وعلى كل حال فإن ذلك قد كتب فيه الكاتبون قديما وحديثا وفي مختلف تفاسيرهم، ولهذا لم أجد للمفسرين الجزائريين غير الإيجاز والاكتفاء بالإشارة إحالة على الكتابات السابقة.

نزل القرآن الكريم على كثير من أساليب العرب في البيان، واستعمل ألفاظهم وربما أحيا شيئا من المهجور منها، ولما واجهوه بالمعارضة أمعنَ في تحدّيهم، وواضح أنه يجبُ على المفسِّرِ أن يبين وجوه ما أعجزهم فيه من جهة خصائص اللفظ، وخصوصية التركيب، ومن جهة صدق المعاني وجدتها. ولما كان هذا المبحث تقليديا وأكثر تداولا من كلّ من خاض في التفسير، فإن المفسرين الجزائريين على اختلاف

مناحيهم في التفسير لم يسعهم أن يتجاوزوا آياته بدون تعليق، ولا مواضعه بدون إشارة وتوسع في الشرح والتوضيح.

فبمناسبة قوله تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[البقرة: 23]، تناول كثير من المفسرين بيان ذلك فمن القدامى الخروبي الطرابلسي(963هـ/1558م) فقد قال في مثل هذا المحل " قوله (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) الأمر على جهة التعجيز. والسورة: آيات مجموعات من القرآن أقلها ثلاث آيات وجميع كتب الله المنزلة على رسله سور مفصلات، لفوائد يتضمنها التفصيل. منها ليسهل جمعها وحفظها على القاري، ومنها أن ذلك أمكن في جمع الأشكال والنظائر من الآيات بعضها إلى بعض وذلك أبلغ في بيان الأحكام إلى غير ذلك من الفوائد. ومثل الشيء شبيهه ونظيره. والضمير من مثله عائد على القرآن عند الجمهور. ومن لبيان الجنس والمثلية فيما خص به القرآن من أوجه الإعجاز التي يعجز البشر عن الإتيان ببعضها. والمقصود تعجيزهم عما أمروا به. قوله (ولن تفعلوا) نفى عنهم الإتيان بما أمروا به من أن يأتوا بسورة من مثله..."[36]. وهكذا لا يكاد السابقون يخرجون في المجمل على ما قرره الخروبي في هذا النص، ويكادون يحصرون الإعجاز في جانبه البياني، وهذا زيادة على أنه أمرٌ أكيد لم يترك فيه الكاتبون زيادة لمستزيد خصوصا عند مؤلفينا القدامى.

وبخصوص المعاصرين من المفسرين فقد تناولوا شكل التحدي المعلن هنا ضد من كانوا في ريب من بعثته عليه السلام، وما جاء به من الحق سور القرآن، وبينوا طبيعة ذلك التحدي ومضمونه وقد اصطلح على تسمية المبحث بالإعجاز فقال الشيخ الخضر حسين: " الريبُ: الشك، والعبد يطلق بمعنى الرقيق؛ أي خلاف الحر، ويطلق على الإنسان ولو كان حرا؛ باعتبار معنى عام هو عبوديته لله، وعلى هذا الوجه أطل قفي الآية مرادا منه النبي صلى الله عليه وسلم، وفي إضافته إلى الله تعالى (عبدنا) تنبيه على شرف منزلته عنده، واختصاصه به. وفي ذكره صلوات الله عليه

باسم العبودية تذكير لأمته بهذا المعنى، حتى لا يغلوا في تعظيمه إلى أن يدعوا إلهيته كما غلت بعض الفرق في تعظيم أنبيائهم أو زعمائهم، فادعوا إلهيتهم. والسورة الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص، والتي أقلها ثلاث آيات. والضمير في قوله: (من مثله) عائد على ما (نزلنا) وهو القرآن والمراد من مثل القرآن: ما يشابهه في حسن النظم، وبراعة الأسلوب، وحكمة المعنى. وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق في كلّ سورة. وفي القرآن وجوه أخرى من الإعجاز: كالإخبار عن غيوب ماضية، أو غيوب مستقبلية، وكاشتماله على معان علمية دقيقة لا عهد للأميين بها."[37].

إن في هذا النص تحديدا لطبيعة التحدي فهو في النظم والأسلوب وهو أمر مستمر في كل سورة مهما قصرت، وقد تزيد السور بأن تشتمل على نوع زائد من الإعجاز كأن يكون في أمر علمي تجريبي، أو تحديد تاريخي. وكل ذلك مفصل في غير هذا الموضع وعند غيره من المفسرين كما سأذكره تباعا. إذ اكتفى المؤلف بالإشارة إليه؛ لكون عمله مبنيا على الاختصار.

وفي نص عام يشمل بعمومه أنواع الإعجاز القرآني، أو بعضا منها على الأقل، فلا يزال مجال القول ذا سعة في طبيعة المعجزة القرآنية يقول الأستاذ مصطفى بن علي: " وأعطى محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن على نحو شاكلة العرب في اشتهارهم بالفصاحة والبلاغة، ولأميتهم ولنزول القرآن شفاعة على عادة كلامهم الحاضر بداهة في خطبهم وأشعارهم وحكمهم وسجعهم. واشتمل القرآن إضافة إلى التنسيق المحكم في اللغة واللفظ والمعنى والعلم، وإن كان جامعا للعلوم كلها وتبيانا وتفصيلا لكل شيء فعمَّ إعجازه كل ما سوى الله وللثقلين خاصة، وللإنس والعرب أخص. فإذا عجز هؤلاء جميعا قديمهم وحديثهم، إنسهم وجنهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن فما عليهم إلا الإذعان لأمر الله والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والإسلام له تعالى على شريعة هذا القول. ومن كفر بعد ذلك فأُلئك هم الفاسقون. هذا عن حقيقة الإعجاز اللفظي والمعنوي للقرآن."[38].

ISSN: 2352-9830 EISSN: 2600-6898

وفي هذا الذي ذكره إجمال يحتاج إلى تفصيل، وإبهام يحتاج إلى تمثيل؛ لأجل ذلك حاول المفسر المذكور أن يركز على التفسير العلمي لبعض الآيات القرآنية، وعدد مجموعة من حقائق القرآن المعجزة إذ كان مصدرها النبي الأمي عليه الصلاة والسلام، وفي بيئة أمية، لم يكن الشرط الموضوعي يسمح بمعرفتها عند سائر أمم الدنيا فضلا عن العرب.

وذلك عند قول المؤلف السابق: " (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)[البقرة: 24]: القرآن الكريم معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الكبرى إلى يوم القيامة بما حفظه الله معجز في لفظه ومعناه، وفي كل زمان ومكان، وللإنس والجن وللأولين والآخرين، وفي لغته وبيانه وفي علمه. وسوف نحاول الاقتصار في حديثنا هذا عن الإعجاز العلمي في بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن حقائق علمية نفسية ومعنوية، ومادية وفي شتى العلوم والمعارف، فضلا عن البيان والأسلوب والفصاحة مما لم يعهده العرب من قبل فما هو بشعر ولا نثر ولا سجع ولا خطابة."[39]. وإنما تركنا ما مثل به لأنها نفس الأمثلة المعهود ذكرها في الكتابات الإسلامية، وهي حقائق أضحى القارئ على علم بها، وهي في موضوعات فلكية وطبية، وتجريبية...

إنما أذكر النص الذي مهد به لما اختاره من أمثلة وأكتفي بالإشارة إليها ليعود من شاء أن يطالعها في محلها لكون الكتاب مطبوعا وإن كان نادرا. فقد قال تحت عنوان: الإعجاز العلمي في القرآن عند قوله " الله تعالى (وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين). ونظرا لكثرة المسائل العلمية في القرآن سوف نأخذ ثلاثة أمثلة منها مختصرين القول فيها إلى مواضعها، ومواضع أخرى من الآيات. والمثل الأول قوله تعالى في سورة يس (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[يس: 40] ، والمثل الثاني في قوله تعالى في سورة النحل (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ

شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)[النحل: 69]. والمثل الثالث قوله تعالى من سورة البقرة (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)[البقرة: 238]..."[40].

وعند نفس الموضع من سورة البقرة، وتعليقا على نفس الآيات تطالع عند محمد بن عبد الكريم تعرضا على سبيل الإجمال، ما يشبه التصوير للمشهد، مشهد المعارضة والتحدي باستدعاء الشهداء والأنصار ولن يغنوا عنهم شيئا: " ومع هذا كله فإن هؤلاء الكافرين والمنافقين هم على علم بالاستنتاجات العقلية والأخبار النقلية، والظواهر الطبيعية فيما يخص وحدانية الله في ذاته وصفاته وأفعاله. وإذا استولى على مداركهم الشك في صحة القرآن المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، وزعموا أنه من صنع البشر؛ فإن الله يتحداهم أن يجيئوا بسورة واحدة تشبه سوره في المبنى والمعنى. ويتحداهم أن يصيحوا بشركائهم، آلهتهم من غير الله أو حلفائهم وفصحائهم، وأن يطلبوا منهم المعونة على ذلك إن كانوا غير كاذبين في زعمهم أن القرآن ليس هو من عند الله. فإن عجزوا أن يجيئوا بذلك – وهم عاجزون عنه دائما وأبدا – فما عليهم سوى أن يخشوا عذاب النار المتأججة.."[41].

وتحت ما درج على تسميته بالتوجيهات يستطرد المؤلف، وحول نفس الآية والموضوع قائلا: " التوجيه الخامس: أن الآية الثالثة والعشرين قد أكدت صحة نبوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بحجة إنزال القرآن عليه، وبتحدي الكافرين والمنافقين به، وبإظهار عجزهم عن الإتيان بسورة واحدة من مثله مبنى ومعنى.

التوجيه السادس: أن قوله تعالى (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) فيه دلالة واضحة على الإخبار بالغيب المتحقق في عجزهم الدائم عن معارضة القرآن الدائم الإعجاز..."[42]. وهذا الذي ذكره يتصل بالموضوع، ولكنه يحتاج إلى مزيد بسط عن شكل التحدي، وطبيعة المعارضة، وهل هذا التحدي خاص بالعرب زمن النبوة، والمكذبين من قريش أم هو عام في كل معارض..

وبالعودة إلى مفسر معاصر يجمع بين الثقافة التقليدية والدراسة الأكاديمية، نجده يتطرق إلى الإعجاز القرآني من جهة تنوع مضمونه، وترتيب درجاته، بعد أن قرر أن القرآن هو بالدرجة الأولى كتاب هداية. يقول الدكتور التواتي:" والتحدي هنا يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة؛ وذلك لورود لفظ (سورة) نكرة في سياق الشرط فتعمُّ كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه. فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها. وهذا ما لا أعلم فيه نزاعا بين الناس سلفا وخلفا. ومن تدبر القرآن الكريم وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية."[43].

وقد لاحظ الباحث في الجملة أنه يوجد إعراض عن التفصيل في وجوه إعجاز القرآن بما في ذلك الإعجاز البياني، واكتفاء بالإشارة إلى الحقائق المقررة، وأكثر الإعراض الواقع هو عن الإكثار من إدراج الأمثلة العلمية الحديثة في مختلف الأبواب من طب وفلك، واجتماع...على ما عهدنا مفسري المشرق الإسلامي يكثرون منه بل يخصونه بالتأليف والكتابة، والذي يظهر لي والله أعلم أن ذلك مرجعه إلى الاحتياط في تفسير كلام الله وإلا فإن الأمثلة معروفة ومقررة، وربما اختاروا عزلها عن التفسير، وإفرادها بالكتابة المستقلة عن تفسير القرآن لمن رغب في ذلك.

هذا ولم أتعرض لكتاب يحي الشاوي لأن كتابه المحاكمات قائم كله على المحاكمة بين أبي حيان والزمخشري وابن عطية، فيما كانوا يذهبون إليه من التوجيه اللغوي للمفردات والتراكيب القرآنية على ما تقتضيه لغة العرب ومنطق بيانهم. ويدل صنيعه لمن طالعه على قدرة معرفية كبيرة؛ لكون الكتب المذكورة هي عمدة البيانيين العرب وغيرهم في معرفة لغة القرآن، والكشف عن أساليب بلاغته وإعجازه.

الخاتمة: نخلص من هذا البحث الوجيز الذس استعرض نماذج من التناول اللغوي لآيات القرآنية عند المفسرين الجزائريين ما يلي:

- بحث المفسرون الجزائريون المفردات والتراكيب والأساليب بإسهاب وإيجاز في مختلف تفاسيرهم.

- ناقش المفسرون كثيرا من الآراء والتوجيهات المنقولة عن غيرهم، فقبلوا منها وردوا بمنطق الدرس اللغوي، وما يسنده الدليل العلمي.

- كان الإيجاز هو السّمة الغالبة للتوجيهات اللغوية عند المعاصرين، وتخففوا بذلك من كثير من المباحث التقليدية، التي كانت سائدة عند المتأخرين.

- أوسع مباحث اللغة عند المتأخرين كانت عند يحي الشاوي، وعند المعاصرين عند الشيخ اطفيش الإباضي، والدكتور التواتي بن تواتي.

- تسجيل الإيجاز الشديد في مباحث الإعجاز القرآني نسبة إلى دراسات المشرقية.

الهوامش:

[1] - عبد الرحمان الثعالبي من كبار العلماء والمفسرين الجزائريين، توفي 875هـ/1470م راجع معجم أعلام الجزائر 90.

[2] - الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لعبد الرحمان الثعالبي (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، ط:02، 1982م) ج 1 / 01.

[3] - الجواهر الحسان. ج 117/1.

[4] - الجواهر الحساني. ج 1/ 36.

[5] - الأمور الناجحة في كشف أسرار الفاتحة، لتقي الدين الشمني القسنطيني (مخطوط على النّت، لوحة 27)

[6] - الأمور الناجحة. لوحة 27.

[7] - محمد بن يوسف السنوسي التلمساني من كبار العلماء الجزائريين، توفي 895هـ/1490م. راجع معجم اعلام الجزائر 180.

[8] - المواهب القدوسية في المناقب السنوسية، محمد بن يوسف الملالي (1020هـ) (مخطوط خاص لوحة: 127)

[9] - تفسير سورة الفاتحة للمغيلي، ضمن كتاب شخصية الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، الدكتور علال بوربيق (مؤسسة البلاغ، الجزائر، 2013م) ص: 166.

[10] - كذا بالأصل.

[11] - الإبريز والإكسير، لأبي راس الناصري (1246هـ). لوحة:03.

[12] - أيسر التفاسير لأبي بكر جابر الجزائري (مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ،ط: 04، 2002م) ج 1 / 01.

[13] - أحمد بن محمد البسيلي/ المسيلي الجزائري، قيد عن ابن عرفة التونسي التفسير. توفي (830هـ/1432هـ) م. راجع معجم أعلام الجزائر 299.

[14] - كذا بالأصل.

[15] - التقييد الكبير لتفسير ابن عرفة، للبسيلي (المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني 2010م) ص: 598.

[16] - التقييد الكبير للبسيلي. ص: 598.

[17] - التقييد الكبير للبسيلي. ص: 598.

[18] - أبو راس الناصري المعسكري مكثر من التآليف. توفي (1238هـ/1848م) راجع معجم أعلام الجزائر306م.

[19] - التقييد الكبير للبسيلي. ص: 598.

[20] - الأنوار اللائحة. لوحة 02/04.

[21] - تفسير أبي راس الناصري. لوحة 03.

[22] - الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين، التواتي بن التواتي (مطبعة رويغي الأغواط، الجزائر، ط:01، 2011م) ج 153/1.

[23] - الدر الثمين. ج 343/1-344.

[24] - الدر الثمين. ج 345/1-346.

[25] - تفسير الشيخ أبي راس. لوحة 02.

[26] - هميان الزاد إلى دار المعاد، للشيخ اطفيش (وزارة التراث القومي.، سلطنة عمان، بدون تاريخ) ج 256/4

[27] - محمد الخضر حسين الجزائري، من كبار الأدباء، وشيخ الأزهر، توفي 1958م. راجع معجم أعلام الجزائر122.

[28] - أسرار التنزيل للخضر حسين (دار البشائر، سوريا، ط01، 2011م) ج 47/1.

[29] - عبد الحميد بن باديس من المفسرين ودعاة الإصلاح توفي 1359هـ/ 1940م . راجع معجم أعلام الجزائر 28.

[30] - مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، لعبد الحميد بن باديس (دار الكتب العلمية . بيروت . ط:01. 1995م) ص: 177.

[31] - الدر الثمين. ج 199/1.

[32] - نفحات الرحمان، للشيخ سعيد كعباش (جمعية النهضة.، غرداية الجزائر، ط: 01. 2006م) ج 271/9.

[33] - نفحات الرحمان. ج 239/9-240.

[34] - تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني (مؤسسة الكتاب الثقافية - لبنان- 1987م) ص: 114.

[35] - الملل والنحل للشهرستاني (مؤسسة الحلبي، سوريا، ب ت) ج 38/2.

[36] - رياض الأزهار للخروبي الطرابلسي (مخطوط في النت) ج 11/1، لوحة: ب.

[37] - أسرار التنزيل للخضر حسين. ص: 46.

[38] - الحق لما اختلف فيه من الحق، مصطفى آل علي. ج 1/ 325.

[39] - الحق لما اختلف فيه من الحق. ج 1/ 325.

[40] - الحق لما اختلف فيه من الحق. ج 1/ 159.

[41] - توجيهات القرآن الكريم، محمد بن عبد الكريم (مؤسسة للنشر والتوزيع، 2011، الجزائر.) ج 1/52-53.

[42] - توجيهات القرآن العظيم. ج 1/54-55.

[43] - الدر الثمين للتواتي. ج 1/228.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊